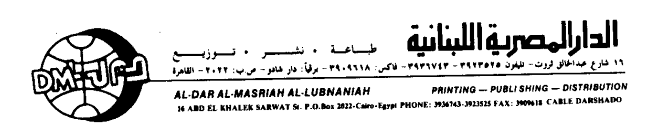
رِسَالَةُ كَيْفِيَّةِ السُّلُوكِ

إِلَىٰ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م



رسالة كيفية السلوك

إلى رب العالمين

لأبي عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي

المتوفى سنة ٣٢٠ هـ

تحقيق وتعليق

الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح

الناشر

الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

«بسم الله الرّحمن الرحيم»

«تقــــــديم»

الحمـد لله رب العـالمين ، الذى جاد على كل حى بما إليـه حاجتـه، ووهب الإنسان عقـلاً به انكشف القناع عن المجهـول، وأشـرقت على النفس أسـرار الموجـودات ، وتجلت معرفة صانع الوجود ، ومن إليه ينتهى كل موجود ، والصلاة والسلام على المرسل رحمة وهداية للناس أجمعين ، المبعوث بالقرآن الكريم ، قدوة أهل الحق والباحثين عن اليقين ٠٠ أما بعد

بين يدى الرسالة :

فإن رسالة «كيفية السلوك إلى رب العالمين» من الرسائل التى ترسم الطريق للسالك ، وتضع العلامات المضيئة أمامه ٠ والطريق ـ أساساً ومنهجاً وغاية ـ يعتمد على القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية٠

وهذا الطريق جربه السّالكون ، وثبتت ثماره عن طريق التجربة أيضاً ·

ورسالة « كيفية السلوك إلى رب العالمين » وضعها العارف بالله ، الحافظ ، المحدِّث ، الإمام ، المؤذن، الحكيم ، الترمذى :

«أبو عبدالله محمد بن على بن الحسن بن بشر» الملقب بالحكيم · ولقب الحكيم أُسند إلى الترمذى خاصة ؛ لأن التعاليم السلوكية قد خطت على يديه خطوة حاسمة فى سيرها الموفق المُطَّرد ، فهى عنده لم تعد مجرد أحوال نفسية ينفعل لها المتذوق فى جلوته ، أو مشاعر ذاتية يحس بها فى خلوته ، بل هى حقائق موضوعية لها كيانها المستقل وعالمها الخاص ·

ويذكر الدكتور عثمان إسماعيل يحيى ، محقق كتاب «ختم الأولياء» للحكيم الترمذى : «أن حكمة الترمذى تبدو فى هذا التحليل البارع لطبيعة النفس الإنسانية ، وفى هذا التصوير الرائع لمناهج السلوك الروحى ، وأخيراً فى هذا التمييز

الحاسم بين أنماط الحكمة ودرجات المعرفة» ٠

ترجمة الحكيم الترمذى :

والحكيم الترمذى كما لُقِّبَ بلقب الحكيم ، فإنه نُسِبَ إلى تِرْمِذ ، مسقط رأسه ، حيث قضى بها أكثر سنين عمره، ولفظ أنفاسه الأخيرة فيها ٠٠ وفى دائرة المعارف الإسلامية يقول توماس أرنولد : «ونجد بين الأبنية فى أطلال المدينة القديمة لترمذ ضريح الولى أبى عبد الله محمد بن على الترمذى » ٠

مولده :

وولد الحكيم الترمذى سنة ٢٠٥ هـ ، وتوفى سنة ٣٢٠هـ حسب ما وصلنا إليه من تحقيق من خلال ما ذكره الذهبى فى «تذكرة الحفاظ» ،وابن حجر فى «لسان الميزان» ، وفريد الدين العطار فى « تذكرة الأولياء » ، ودار شكوه فى « سفينة الأولياء » ، وحاجى خليفة فى «كشف الظنون» ٠

طلبه للعلم :

ويذكر صاحب «تذكرة الأولياء» : أن الشيخ الترمذى كان قد عقد النية فى أول أمره ، على الرحلة لطلب العلم ، وفى رفقة اثنين من إخوانه و فى أثناء ذلك مرضت أمه ، فقالت له : يا بنى ، إنى امرأة ضعيفة ، لا عائل لى ، ولا معين يعيننى ، وإنك المتولى لأمرى ، فإلى من تَكِلُنى وتذهب ؟ فنالت هذه الكلمات من نفسه وعدل عن الرحلة ، ومضى زميلاه في سبيلهما ..

ثم مضى على ذلك بعض الوقت ، فبينما كان فى إحدى المقابر يبكى بكاءً شديداً ، ويقول : هأنذا قد بقيت جاهلاً مهملاً ، وسيرجع أصحابى ، وقد حصلوا على العلم ، إذ به يرى أمامه فجأة شيخاً مشرق الوجه ، فسأله الشيخ عن سر بكائه ، فأفضى إليه الفتى بحاله ، فقال له الشيخ : ألا أعلمك فى كل يوم شيئاً من العلم، فلا يمر عليك كثير وقت حتى تسبق إخوانك ، فأجابه الفتى إلى ذلك .

واستمر الشيخ على تعليمه كل يوم ، ومضت على ذلك أعوام، ثم عرف الترمذى بعد ذلك أن الشيخ هو «الخضر» عليه السلام ، وأنه إنما حصل على هذا ببركة دعاء أمه» .

ويقول الحكيم الترمذى فى رسالة خاصة بنشأته : «كان بُدُوُّ شأنى أن الله تبارك اسمه قيض لى شيخى ، رحمة الله عليه ، من لدن بلغت من السن ثمانياً ، يحملنى على تعلُّم العلم ، ويعلمنى ويحثنى عليه ، ويدأب ذلك فى المنشط والمكره ، حتى صار ذلك لى عادة وعوضاً عن الملعب فى وقت صباى ، فجمع لى فى حداثتى علم الآثار ، وعلم الرأى ، حتى إذا قارب سنى سبعاً وعشرين أو نحوه ، وقع على حرص الخروج إلى بيت الله الحرام ، فتهيأ لى الخروج فوقفت بالعراق طالباً للحديث ، وخرجت إلى البصرة ، فخرجت منها إلى مكة فى رجب ، فقدمت مكة فى بقية شعبان ، فرزق الله المقام بها إلى وقت الحج ، وفتح لى باب الدعاء عند الملتزم فى كل ليلة سحراً ، ووقع على قلبى تصحيح التوبة ، والخروج مما دقَّ وجَلَّ ، وحججت ،

فرجعت وقد أصبت قلبى ٠

وسألته عند الملتزم فى تلك الأوقات أن يصلحنى ويزهدنى فى الدنيا ، ويرزقنى حفظ كتابه ، وكنت لا أهتدى لشىء من الحاجات غير هذا ، فرجعت وقد ألقى علىَّ حرص حفظ القرآن فى طريقى ، فأخذت صدراً منه فى الطريق، فلما وصلت إلى الوطن يسر الله على بِمَنِّه ، حتى فرغت منه ، فأقامنى ذلك بالليل ، فكنت لا أَمل من قراءته . إنه كان ليقيمنى ذلك إلى الصباح ، ووجدت حلاوته ٠

بداية الطريق :

فأخذت أتتبع من الكتب محامد الرب ـ تبارك اسمه ـ والتقاط محاسن الكلام ، من طريق العظات ، وما يُستعان به على أمر الآخرة ، وأسترشد فى البلاد ، فلا أجد من يرشدنى فى الطريق ، أو يعظنى بشىء أتقوى به ، وأنا كالمتحير لا أدرى أى شىء يُراد لى إلاأنى أخذت فى الصوم والصلاة ، فلم أزل كذلك حتى وقع فى مسامعى كلام أهل المعرفة ،

ووقع إلىَّ كتاب الأنطاكى ، فنظرت فيه ، فاهتديت لشىء من رياضة النفس ، فأخذت فيها ، فأعاننى الله ، وألهمت منع الشهوات نفسى ، حتى صرت كأنى أعلم على قلبى الشىء بعد الشىء ، حتى ربما كنت أمنع نفسى الماء البارد، وأتورع عن شرب ماء الأنهار ، فأقول : لعل هذا الماء جرى فى موضع بغير حق ، فكنت أشرب من البئر ، أو من الوادى الكبير.

ووقع علىَّ حُب الخلوة فى المنزل ، والخروج إلى الصحراء، فكنت أطوف فى تلك الخربات والنواويس حول الكورة[1] .

فلم يزل ذلك دأبى ، وطلبت أصحاب صدق يعينوننى على ذلك ، فعز علىَّ ، فاعتصمت بهذه الخربات والخلوات.

فبينما أنا على هذه الحال إذ رأيت ـ فيما يرى النائم ـ كأنى أرى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، دخل المسجد

(١) النواويس : المقابر ـ والكورة البقعة التى يجتمع فيها قُرًى ومَحَالٌ

الجامع فى كورتنا ، فأدخل على أثره ، فألزم اقتفاء أثره ، فما زال يمشى حتى دخل المقصورة ، وأنا على أثره ، ومن القرب منه ، حتى كأنى أكاد ألتزق بظهره وأضع خُطاىَ على ذلك الموضع الذى يخطو عليـه ، حـتى دخلت المقصورة ، فرقى المنبر ، فرقيت على أثره ، كلما رقى درجة رقيت على أثره ، حتى إذا استوى على أعلاها درجة قعد عليها ، فقعدت عند الدرجة الثانية من مجلسه عند قدميه ، ويمينى إلى وجهه ، ووجهى إلى الأبواب التى تلى السوق ، وشمـالى إلى الناس ، فـانتبـهت من نومى وأنا على تلك الحال.

ثم من بعد ذلك بمدة يسيرة ، بينا أنا ذات ليلة أصلى ، فثقلت ، فوضعت رأسى فى مصلاّى جنب فراشى ، إذ رأيت صحراء عظيمة ، لا أدرى أى مكان هو ، فأرى مجلساً عظيماً ، وصدراً مهيئاً لذلك المجلس ، وحَجَلَة[1] مضروبة ، لا أقدر على صفة تلك الثياب، وذلك الستر ، فكانه يُقال لى :

---

(١) الحَجَلة : الساتر .

إنه يذهب بك إلى ربك ، فأدخل تلك الحجب ، فلا أرى شخصاً ولا صورة٠

إلا أنه وقع فى قلبى أننى لما دخلت وقع عليَّ الفزع فى ذلك الحجاب ، فأيقنت فى منامى بالوقوف بين يديه ،فما لبثت أن رأيت نفسى خارجا من الحجب ، بالقرب من باب الحجاب ، واقفاً وأنا أقول : عفا عنى ، وأجد نفسى قد سكنت من الفزع ، فدام لى شأن رياضة النفس من تجنب الشهوات ، وقعود فى البيت على عزلة من الخلق، وطول نجوى من الدعاء ، فانفتح له شىء بعد شىء، ووجدت فى قلبى قوة وانتباهاً ، وطلبت من يعيننى، فكان يكون لنا اجتماع بالليالى نتناظر ، ونتذاكر ، وندعوه ونتضرع بالأسحار ٠

افتراء وبهتان :

فأصابتنى غموم من طريق البهتان والسعايات ، وحمل ذلك على غير محمله ، وكثرت القالة ، وهان ذلك كله عليَّ ، وسُلط عليَّ أشباه ممن ينتحلون العلم ،يؤذوننى

ويرمونني بالهوى والبدعة ، ويبهتون [1] وأنا فى طريقى ، ليلاً ونهاراً ، دءوباً دءوباً ، حتى اشتد البلاء ، وسار الأمر إلى أن سعى بى إلى والى بلخ ، وورد البلاء من عنده، من يبحث عن هذا الأمر، ورفع إليه أن هاهنا من يتكلم فى الحب، ويفسد الناس ، ويبتدع ، ويدعى النبوة ، وتقوّلوا علىّ[2] مالم يخطر قط ببالى ، حتى صرت إلى «بلخ» وكتب على قباله ألاّ أتكلم فى الحب ·

وكان ذلك من الله ـ تبارك اسمه ـ سبباً فى تطهيرى، فإن الغموم تُطَهِّرُ القلب ، و ذكرت قول داود صلى الله عليه وسلم أنه قال : «يارب أمرتنى أن أطهر بدنى بالصوم والصلاة، فبِمَ أطهر قلبى؟ قال : بالغموم والهموم ياداود»

فتواترت على الغموم ، حتى وجدتُ سبيلاً إلى تذليل نفسى ، فكنت أراودها على أمور قبل ذلك ، من طريق الذلة، فتنفر ولا تطاوعنى، مثل ركوب الحمار فى السوق ، والمشى حافياً فى الطرق ، ولبس الثياب الدون ، وحمل شىء

(١) يبهتون : يدهشون

(٢) تقولوا : اختلقوا كذباً

مما يحمله العبيد و الفقراء ٠

فيشتد عليَّ ذلك ، فلما أصابتنى هذه المقالة والغموم ذهبت شِرَّة[1] نفسى ، فحملت عليها هذه الأشياء ، فذلت وأطاعت حتى وصل إلى قلبى حلاوة تلك الذلة ٠

فبينا أنا كذلك إذ اجتمعنا ليلة على الذكر ، فى ضيافة لأخ من إخواننا ، فلما مضى من الليل ما شاء الله ، رجعت إلى المنزل ، فانفتح قلبى فى الطريق فتحاً لا أقدر أن أصفه ٠

وكأنه وقع فى قلبى شىء طابَتْ له نفسى والتَذَّتْ به،

وفرحت حتى مررت ، فما استقبلنى شىء هبته، حتى إن الكلاب ينبحن فى وجهى فآنَسُ لنباحهن من لذة وُجِدَتْ فى قلبى ٠٠ حتى بدا له أن السماء بكواكبها وقمرها صارت إلى قرب الأض وأنا فيما بين ذلك أدعو ربى ،ووجدت كأن قلبى نصب فيه شىء ، فإذا وجدت تلك الحلاوة التوى وتقبض بطنى ، التوى بعضه على بعض من شدة اللذة واعتصر ، وانتشرت فى صلبى وعروقى تلك الحلاوة ، وكان

(١) الشِّرَّة : الحِدَّة .

يُخَيَّلُ إليَّ أن قُربى من مكان قرب العرش ، فما زال ذلك دأبى كل ليلة إلى الصباح : أسهر ولا أجد نوماً ، فقوى قلبى على ذلك ، وأنا متحير ، لا أدرى ما هذا ، إلاَّ أنى ازددتُ قوة ونشاطاً فيما كنت فيه ٠

وهاجت ببلاد فتنة وانتقاص أمر ، حتى هرب جميع من كانوا يؤذوننى ويشنعون عليَّ فى البلاد ، وابتلوا بالفتنة ، ووقعوا فى الغربة ، وخلت البلاد منهم ٠٠ فبينا أنا كذلك إذ قالت لى أهلى : إنى رأيت فى المنام كأن قائما فى الهواء خارجا من الدار فى السكة ، فى صورة رجل شاب ، جعد ، عليه ثياب بياض ، له نعلان ، ويناديني فى الهواء ، وأنا فى الصفة بحذائه : أين أين زوجك ؟ قلت : خرج ، قال : قولى له : إن الأمير بأمرك أن تعدل ، ثم مرَّ .

فلم يأت على هذا مدة ، حتى اجتمع الناس ببابى من مشايخ البلد ، من غير أن أشعر بهم ، وقرعوا الباب، فخرجت إليهم فكلمونى فى القعود لهم ٠٠ وقد كان هؤلاء الأشكال

قد قبحوا أمرى عند العامة قبحاً كنت أتوهم أنهم السَّقَم أكثرهم ، لما كانوا يذيعون(*) هؤلاء علىَّ من الكلام القبيح، ويشنعون أمرى ، ويرموننى بالبدعة من غير أن يكون ذلك من شأنى أو توهمته قط ، فما زالوا يكلموننى فى ذلك حتى أجبتهم إلى القعود ، فذكرت لهم من الكلام شيئاً كأنه يغترف من البحر ، فأخذت منى القلوب مأخذاً ٠

عَوْدٌ إلى الحق :

واجتمع الناس ، فلم تحتمل دارى ذلك ، وامتلأت السكة والمسجد ، فلم يزالوا بى حتى مدونى «جرونى» إلى مسجد ، وذهبت تلك الأكاذيب والأقاويل الباطلة ، ووقع الناس فى التوبة ، وظهرت التلامذة ، وأقبلت الرياسة والفتن ، بلوى من الله لعبده ٠

ورجع أولئك الأشكال إلى البلاد ، بعدما قويت ، وكثرت التلامذة ، وأخذت القلوب مواعظى ، وتبين لهم أن هذا كان

(*) هكذا فى الأصل ، والصواب : لما كان يذيع ؛ لأن واو الجماعة لاتلحق الفعل إذا كان فاعله جمعاً .

منهم بغياً وحسداً ، فلم ينفذ لهم بعد ذلك قول وأيسوا ٠ وقبل ذلك كانوا صيروا السلطان والبلاد على بحال لا أجترى أن أطلع رأسى ، فأبى الله إلا أن يبطل كيدهم» ٠

لقد كان الحكيم الترمذى ـ كما رأيت مما ذكره هو عن نفسه ـ كان رجلا طلعة ، مولعاً بالبحث عن الحقيقة ، والسعى وراء اليقين الذى ينشرح به الصدر ، ويطمئن القلب ٠

ولا يخفى أن رسالة «كيفية السلوك إلى رب العالمين » للحكيم الترمذى ، التى كانت حبيسة خزائن المخطوطات ، سوف تضع الباحث على قضايا جديرة بالاهتمام ٠

ألقاب الحكيم الترمذى:

إن الباحث فى ترجمة الحكيم الترمذى يجد أن أصحاب الطبقات والتراجم ، لقبوه بألقاب علمية كثيرة ، وجميع هذه الألقاب تدلنا على مكانة الرجل عند العلماء وأهل المعرفة ، كما أن هذه الألقاب تشير إلى عطائه فى العلم

والسلوك والخلق والطريق · وقد عرف أهل الفضل هذا عن الحكيم ، فأطلقوا عليه ما أطلقوا من ألقاب ، لها دلالتها وحقيقتها ··

فالسبكى فى طبقات الشافعية ذكر عنه بأنه «المحدث الزاهد أبو عبد الله الحكيم الترمذى ، الصوفى ، صاحب التصانيف»[1].

والذهبى فى «تذكرة الحفاظ » قال عنه : «إنه الإمام الزاهد الحافظ المؤذن صاحب التصانيف»[2].

وابن حجر فى «لسان الميزان» ذكر من ألقابه : «المؤذن المعروف بالحكيم أبو عبد الله»[3].

«ومن الألقاب الملازمة التى لا يكاد يذكر بدونها ، والتى لا تُطلق إلا عليه إذا ذكرت منفردة عن اسمه ، فهى : الترمذى والحكيم معاً ، ويختلف استعمالهما تقديماً

---

(١) السبكى : «طبقات الشافعية» جـ٢ ص ٢٤٥ .

(٢) الذهبى : «تذكرة الحفاظ» جـ٢ ص ٦٤٥ .

(٣) ابن حجر : لسان الميزان جـ٢ ص ٣٠٨ .

وتأخيراً ، بل يتغير وضع لقب الحكيم فى الاستعمال ، حيث يستعمل أحياناً قبل الاسم ، وأحياناً بعده» [1]

أما لقب الترمذى فلأنه كان من عادة العلماء أن تنسب العالم إلى بلدته لعدة أغراض ، منها : أمانة النقل، وتمييز المصادر ، ونسبة الشيء إلى صاحبه الحق عند اشتباه الأسماء ، مع اختلاف البلدان ، وعند توجه النقد بعد ذلك إلى سنده أو متنه ، وغير ذلك من الأغراض العلمية التى لا تكاد تحتاج إلى تنبيه ، ولم يثر هذا اللقب شيئاً من المشاكل يلفت النظر إليه أو إلى البحث فيه »[2].

أما تلقيب الترمذى بالحكيم ، فهو أكثر الألقاب استعمالاً، وأعظمها شيوعاً وانتشاراً · وقد حظى هذا اللقب بالبحث والدراسة عند بعض المهتمين بالدراسات العلمية ، فقالوا فى سبب تلقيب الترمذى بالحكيم : «إنه كان أكثر اهتمامه هو تبين العلاقة بين الحقائق النفسية وبين الجسم

(١) الدكتور بركة : الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية جـ١ ص ٥٢.

(٢) الدكتور بركة : الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية جـ١ ص٥٢.

الإنسانى ، وربط بعض ذلك ببعض ، وهو على مايظهر كان على معرفة بتركيب الجسم ، مما يدل على أنه درس شيئاً من الطب »[1] .

وقالوا أيضاً فى سبب تلقيبه بالحكيم : «لأنه كان حريصاً على أن يجمع بين الناحية الروحية القديمة للثقافة الإسلامية وبين المنهج العقلى الذى جد فى عصره » [2] .

وقالوا : «لأن الترمذى كان أول مسلم بدت لديه براعم الأفكار الفلسفية الإغريقية ، فكان بالتالى الممهد لمذهب العرفان .فى التصوف الإسلامى [3] .

ولاشك أن البحث العلمى يرفض مقولة القائلين : بأن الحكيم الترمذى سُمى حكيماً لأنه بدت لديه براعم الأفكار

---

(١) الحكيم الترمذى:كتاب الرياضة وأدب النفس ، تحقيق الدكتور أربرى والدكتور على حسن عبدالقادر المقدمة ص ١٢و١٣

(٢) الحكيم الترمذى : حقيقة الأوبئة ، تحقيق الحسينى ، المقدمة ص ٧ ــ مطبعة التجارة بالإسكندرية .

(٣) الحكيم الترمذى : ختم الأولياء ، هامش ص٤ مقدمة الدكتور عثمان يحيى.

الفلسفية الإغريقية ٠٠ «وهذا القول غير دقيق ؛ لأن الكندى المتوفى حوالى ٢٥٣ هـ ، وأبا الهذيل العّلاف المتوفى عام ٢٣٤ هـ ، وإبراهيم النظام المتوفى عام ٢٥٦هـ ، كانوا أول من تأثر بالفلسفة اليونانية فى عصرهم ، ولقد أشارت المصادر إلى ذلك ، فضلاً عن أن آراءهم ذاتها تؤكد ذلك التأثر ، ومع ذلك فإن العلاف والنظام لم يلقب واحد منهما بلقب الحكيم ، أما الكندى فهو وحده الذى لُقب به ، بوصفه أول فلاسفة العرب والإسلام ، وعلى ذلك فإن إرجاع تسمية الترمذى بالحكيم إلى ذلك السبب ليس صحيحاً».[1] ونجد كذلك أن تلقيب الترمذى بلقب الحكيم بسبب أنه كان على معرفة بتركيب الجسم مما يدل على أنه درس شيئا من الطب ٠٠ نجد هذا الإرجاع بعيداً ، وذلك كما يذكر أحد العلماء : «أن الحكمة غير الطب ، وأن الحكيم غير الطبيب ، وقد يجتمعان فى فرد واحد باعتبارين لا باعتبار واحد ، فالحكيم

(١) الحكيم الترمذى: علم الأولياء، تحقيق الدكتور سامى نصر لطف المقدمة ص٢٣ .

قد يكون طبيباً إذا تعلم الطب ، فيدعى طبيباً كما يدعى حكيماً ، وقد لا يكون طبيباً إذا أهمل تعلم الطب ، وقد يكون الطبيب حكيماً إذا أعد نفسه هذا الإعداد ، وقد يكون خالياً من الحكمة إذا لم يكن لديه هذا الاستعداد ، فلا يدعى بالحكيم ، وإن دعى بالطبيب ،على أنه يغلب على من جمع الطب والحكمة أن يلقب بأشرف اللقبين .وهوالحكيم ، فالجهة بينهما منفكة» (١)

«فالتلقيب بالحكمة لا يحتمل التلقيب بالطب ضمناً إلاً بقرينة من القرائن ، كما إذا اشتهر بذلك أو عرف عنه. وقديكون هذا هو السر فى أن كثيراً من المترجمين للفلاسفة يحرصون على وضع لقب الطبيب بجوار لقب الفيلسوف ، عند ترجمتهم لمن يكون فيلسوفاً وطبيباً معاً ، وذلك خوفاً أن يتبادر إلى الذهن أنه كان فيلسوفاً فحسب ، وأنه لم يكن محصلاً لصناعة الطب . وعلى ذلك فلا يمكن أن

---

(١) الدكتور بركة: الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية ، جـ١ ص٥٤.

نستنتج أن تلقيب الترمذى بالحكيم كان بسبب معرفته بالطب إلا بقرينة ، وذكر معرفته لأجزاء البدن لا يصلح قرينة على ذلك ؛ إذ أن معرفة أجزاء البدن من المعارف العامة» .[1]

ومن هنا كان تلقيب الترمذى بالحكيم يعود إلى أسباب أخرى غير الطب وغير الفلسفة الإغريقية · وقد جد الباحثون فى الوصول إلى معرفة هذه الأسباب ، ومحقق كتاب «علم الأولياء» للحكيم قد أرجع السبب فى ذلك إلى عدة عوامل ، جاء فيها قوله:

١ ـ ولعلنا نرجع السبب فى ذلك إلى قدرة الترمذى على سبر أغوار النفس الإنسانية ، واستكناه باطنها لمعرفة علة مرضها ، وكيفية معالجتها ، وتلمسه العلاج فى أساليب فلسفية ، وفى مفاهيم عقلية وروحانية كالتطهير والتأديب والتهذيب والرياضة الروحية والمجاهدة الذاتية ·

---

(١) الدكتور بركة: الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية ، جـ١ ص٥٥.

٢ ـ كما أننا نرجح أن يكون الترمذى قد لقب بالحكيم لمنهجه فى الحديث عن الإنسان : مفهومه وكيفية خلقه، وتسويته ، وتقسيم أدوات معرفته بين حواس ظاهرة وأخرى باطنة ، فقد كان حديث الترمذى عن الحواس الباطنة حديثاً طريفاً كل الطرافة ، وكانت معظم آرائه فيها أصيلة كل الأصالة حين قسمها إلى صدر وقلب ، وفؤاد ولب ، وجعل لكل أداة من هذه الأدوات درجة من المعرفة ومرتبة من حيث اليقين والصدق ..

٣ ـ وكذلك فإن تحليلاته الرائعة والعميقة للألفاظ ، والمصطلحات تدل على خبرة واسعة ، ودراية شاملة بالأشياء وبالأسماء وبالمعانى ..

٤ ـ ثم إن كثيراً من الأمثلة التى كان يسوقها الترمذى بقصد توضيح فكرة أو تبسيط رأى ، إنما تدل على منحى تجريبى فى تفكير الترمذى ، كما تدل أيضاً على خبرة بالنفس الإنسانية ، وعلى وعى بالعقل الإنسانى ،

وكيف أن الإنسان يفتقر دائماً ـ فى تصديقه بمعظم الأشياء ـ إلى استدلالات وأمثلة من الواقع ؛ لكى يمكنه تصور الفكرة وتعقلها ، ومن ثم الاعتقاد بها ، فالتجريد كما نعلم يبدأ من الواقع ، ويرتبط به ارتباط الكليات بالجزئيات التى استخلصت منها ، وينتمى الواقع إلى إلفكر انتماء الجزئى إلى الكلى ..

٥ ـ ومما يمكن أن يضاف إلى أسباب تسمية الترمذى بالحكيم ، تلك التقسيمات الطريفة للعلم ، وتقسيمه الحكمة إلى عُليا ودنيا ، ولعله قد وصل فى حياته إلى الحكمة العليا، وحصل على هدفه الأسمى ، ومن هنا استحق أن يكون حكيماً لاتِّسَاقِ آرائه مع هدفه منها ، ومع المنهج الموصل إلى تحقيق هذا الهدف[١]

والدكتور عثمان إسماعيل محقق كتاب «ختم الأولياء» يذكر فى هامش المقدمة : أنه يرى أن لقب الحكيم أُسند إلى الترمذى خاصة ؛ لأن التعاليم الصوفية قد

(١) راجع الدكتور سامى نصر لطف ـ مقدمة كتاب « علم الأولياء » ص٢٣و ٢٤ ط مكتبة الحرية.

خطت على يديه خطوة حاسمة فى سيرها الموفق المطرد، فهى عنده لم تعد مجرد أحوال نفسية ينفعل لها الصوفى فى جلوته ، أو مشاعر ذاتية يحس بها فى خلوته، بل حقائق موضوعية لها كيانها المستقل وعالمها الخاص ، وحكمة الترمذى فى تصوفه تبدو فى هذا التحليل البارع لطبيعة النفس الإنسانية ، وفى هذا التصوير الرائع لمناهج السلوك الروحى ، وأخيراً فى هذا التمييز الحاسم بين أنماط الحكمة ودرجات المعرفة» .[1]

وقد يكون واحد من هذه الأمور سبباً فى تلقيب الترمذى بالحكيم ، وقد تكون كلها ، وقد يضاف إليها غيرها ، والذى يبدو واضحاً لأهل العلم : أن المراد بحكمة الحكيم هو الحكمة الإسلامية التى انطلقت من القرآن الكريم ، وسنة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ٠

---

(١) راجع الدكتور عثمان إسماعيل ـ مقدمة كتاب «ختم الأولياء» هامش ص ٥ ط بيروت.

«وأصل مادة «الحكمة» موضوع لمنع يُقْصَدُ به إصلاح .
والحكمة : العدل ، والعلم ، والحلم ، والنبوة ، والقرآن، وطاعة الله ، والفقه فى الدين ، والعمل به ، أو الخشية أو الفهم ، أو الورع ، أو العقل ، أو الإصابة فى القول والفعل، والتفكر فى أمر الله واتباعه [١].

والحكمة تحقيق العلم وإتقان العمل [٢] ومعرفة آفات النفس والشيطان والرياضيات ، وقيل : هى معرفة الحق لذاته، والخير لأجل العمل به[٣] .

والحكمة ـ عند الحكيم الترمذى ـ حكمتان ، كما أن العلم علمان : علم بالله ، وعلم بأمر الله ،ولكل علم حكمة، والعلم ماظهر ، والحكمة مابطن منه . وكما أن

---

(١) انظر الفيروز بادى ـ بصائر ذوى التمييز جـ٢، ص٤٨٧و ٤٩١ ط المجلس الأعلى بالقاهرة .

(٢) راجع الشيرازى البيضاوى ـ أنوار التنزيل ص ٥٩ ط الحلبى ١٣٧٥ هجرية .

(٣) انظر الدكتور عبد المنعم الحفنى ـ معجم مصطلحات الصوفية ص ٨٠ ط دار المسيرة ـ بيروت .

العلم علمان ، فكذلك الحكمة حكمتان :حكمة من العلم به ، وهى الحكمة العليا ، وحكمة من العلم بأموره وتدبيره وصنعته [1] .

فالعلم عند الترمذى هو معرفة ظواهر الأشياء والموجودات ، أما الحكمة فهى العلم بجواهر الأشياء وحقائقها الداخلية[2].

ومرتبة الحكمة عند الترمذى تعود إلى : «حكمة تتولد من كثرة التجارب ، وحكمة تتولد من صفاء المعاملة ، وهذه تدلك على الآخرة ، وحكمة تتولد من القرب والمشاهدة وأنها الحق لأهلها ، وهذه الحكمة تدلك على التقرب والصفات ، ووجود بقربة الحق ، وهى أعلاها وأجلها . والتى تتولد من التجربة تدلك على مصالح الدنيا ، وهى

---

(١) الحكيم الترمذى ـ الكلام على معنى لا إله إلاَّ الله أو شفاء العلل ص٣٣ ط مطبعة حسان .

(٢) الدكتور سامى نصر لطف ـ مقدمة كتاب علم الأولياء ص ٨٣ ..

أدناها ، والثانية على الآخرة ، والثالثة على الجود والحق[1].

والحكمة التى تتولد من القرب والمشاهدة هى المتصلة بالحق ، وهى الحكمة العليا «حيث انكشف كل غطاء دق أو جل ، وخشعت النفس لله ، وجالت قلوبهم فى الملكوت الأعلى ، وفتح لهم من الحكمة العليا ، قال جل جلاله وعظم شأنه ، وتعالى كبرياؤه ، وتقدست أسماؤه ، وسمت كلماته، سبحانه وبحمده﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [سورة آل عمران ـ من الآيه ١٦٤] . فالكتاب ظاهر القرآن، والحكمة باطنه ، وهى التى يُقال لها حكمة الحكمة، وهى الحكمة العليا ، فلما آتاهم من الحكمة العليا عاينوا مافى الملكوت بأبصار القلوب ، فصارت تلك المعاينة بصيرة للنفوس» [2] .

فالحكمة مصطلح إسلامى أصيل ، والحكيم إنسان أُعْطِىَ ينابيع الحكمة . وقد جاء الأصل السادس والثمانون والمائتان

(١) الحكيم الترمذى ـ معرفة الأسرار ص ٨٤ و ٨٥ تحقيق الدكتور الجيوشى ط النهضة العربية .

(٢)الحكيم الترمذى ـ علم الأولياء ص ١٣٩ .

في كتاب «نوادر الأصول» للحكيم الترمذى تحت عنوان «فى عثرة الحليم وتجربة الحكيم » :

«فالحكمة من نور الجلال ، فإذا أعطى العبد انفجرت ينابيع الحكمة على قلبه ، فهذه الحكمة ينبوعها على قلبه، فهى جاثمة متراكمة ، ومالم يأخذه بالتجارب لم تقدر النفس على مطالعة الحكمة ؛ لأن النفس بلهاء غنمية مشغولة بالشهوات ، فكيف تدرك الحكمة ، والحكمة باطن الأمور وأسرار العلم ؟ » (١) ٠

ودلتنا أبحاث العلماء على : «أن لقب الحكيم لا يُطلق على كل فرد ، بل يُطلق على أفراد قلائل من البشر ، فهو إذن من الألقاب الاصطلاحية التى تُطلق لمعنى خاص يلاحظ فيمن تطلق عليه» (٢) ٠

لايخفى أن هذه المعانى الخاصة وجدت عند الحكيم ، ولذلك استحق هذا الاصطلاح الخاص ٠ فقد كانت آيات

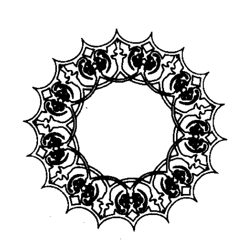
(١) الحكيم الترمذى ـ نوادر الأصول ص ٤١٥ .

(٢) الدكتور بركة ـ الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية جـ١ ص ٥٦.

القرآن الكريم والسنة النبوية ـ بشتى ما دار حولهما وما جاء عنهما ولهما وبهما من معارف وعلوم ـ مصدراً أصيلاً وخصباً لآرائه وحكمته ، وأقواله ، وسلوكه وتصانيفه ٠ كان مفكراً واسع العطاء ، ومن ثم أطلق عليه الحكيم ، ولقب الحكيم من الألقاب النادرة التى يحتاج مَنْ تُطلق عليه إلى قدرات خاصة ، وفتوحات إلٰهية ، ومواهب متعددة ، ونحسب أن الحكيم الترمذى كان كذلك ٠٠

أسأل الله أن يلهمنا السداد والصواب .

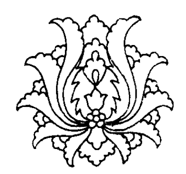
دكتور أحمد عبد الرحيم السايح

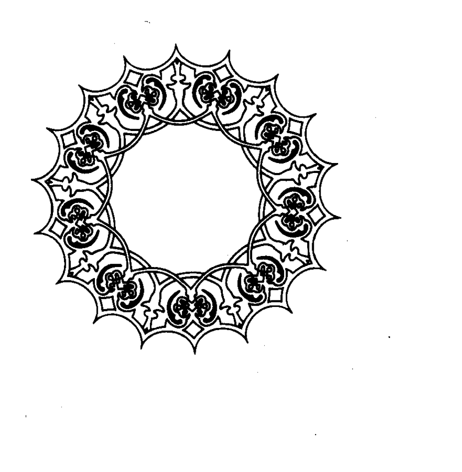


رسالة كيفية السلوك

إلى رب العالمين

لأبي عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي
المتوفى سنة ٣٢٠ هـ





بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه ، وسلم تسليماً.

قال الشيخ ، الإمام ، العالم ، الربانى ، الفاضل ، الكامل ، الولى ، العارف : أبو عبد الله محمد بن على بن الحسن ابن بشر ، الترمذى ، الحكيم ، رضى الله تعالى عنه ، ونفعنا به ، وحشرنا فى زمرته [1]

الحمد لله ، واهب العقل ومبدعه ، وناصب النقل ومشرعه ، له المنة والطَّوْلُ ، والقوة والحول ، لا إله إلا هو ، رب العرش العظيم.

وصلى الله على من أقام به أعلام الهدى ، وأنزله بالنور الذى أظل به مَنْ شاء وهَدَى ، وسلم على آله الطيبين ، الطاهرين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

أجبتُ سؤالك [2] ، أيها الوَلِيُّ الكريم [3] ، والصَّفِيُّ الحميم : فى كيفية السلوك إلى رب العالمين ، والوصول إلى

حضرته ، والرجوع من عنده إلى خلقه ، من غير مفارقة ، فإنه ليس فى الوجود إلاّ الله تعالى ، وصفاته ، وأفعاله ، فالكل هو به ، ومنه ، وإليه ٠ فلو احتجب عن العالم طرفة عين ، لفنى العالم ، دفعة واحدة ، فبقاؤه : بحفظه ، ونظره إليه ٠

غير أن من اشتد ظهوره فى نوره ، بحيث أن تَضعُف الدروكات عنه ، يسمى ذلك الظهور حجاباً ٠

كيفية السلوك إليه (سبحانه) :

فأول ما أبينه لك ــ وفقك الله ــ كيفية السلوك إليه ، ثم كيفية الوصول والوقوف بين يديه ، والجلوس فى بساط مشاهدته (٤) وما يقوله لك ، ثم كيفية الرجوع من عنده ، إلى حضرة أفعاله وإليه ، ثم الاستهلاك فيه ، وهو مقام دون الرجوع ٠٠

فاعلم ــ أيها الإخ ــ أن الطرق شتى ، وطريق الحق مفردة، والسالكون طريق الحق أفراد ٠

ومع أن طريق الحق مفردة ، فإنه تختلف وجوهه ، باختلاف أحوال سالكيها ، من اعتدال المزاج وانحرافه ، وملازمة الباعث ، وقوة روحانيته وضعفها ، واستقامة همته وميلها ، وصحة توجهه وسقمه • فمنهم من تجمع له ، ومنهم من يكون له بعض هذه الأوصاف • فقد يكون مطلب الروحانية شريفاً ولا يساعده المزاج ، وكذلك مابقى [٥] •

فأول ما يتعين علينا أن نبينه : معرفة المواطن كم هى، وما يقتضى ما أريد منها • والمواطن : عبارة عن محل أوقات الموارد التى تكون فيه • وينبغى لك أن تعرف ما يريد الحق منك فى تلك المواطن ، فتبادر إليه من غير تثبط ولا كلفة•

والمواطن ـ وإنْ كثرت ـ فإنها ترجع الى ستة :

الأول : موطن :﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾وقد فصلنا عنه [٦] •

والثانى : موطن الدنيا الدنى التى نحن الآن فيها •

والثالث : موطن البرزخ ، الذى نصير إليه ، بعد الموت الأصغر والأكبر •

والرابع : موطن الحشر ، بأرض الساهرة ، والرد في الحافرة[7]

والخامس : موطن الجنة والنار ٠

والسادس : موطن الكشف خارج الجنة ٠

وفي كل موطن من هذه المواطن مواضع ، هي مواطن ، ليس في القوة البشرية الوفاء بها لكثرتها ،ولسنا نحتاج من هذه المواطن إلا إلى موطن الدنى العمرى ،فهو محل التكليف ، والابتلاء ، والأعمال ٠

واعلم : أن الناس منذ خلقهم الله مُكَلَّفُون ، ومنذ أخرجهم من العدم إلى الوجود ، لم يزالوا مسافرين ، وليس لهم حط عن رحالهم إلا في الجنة أو النار ٠

وكل جنة أو نار بحسب أهلها ٠ فالواجب على كل عاقل ، أن يعلم أن السفر مبنى على المشقة ، وشظف العيش والمحن والبلايا ، وركوب الأخطار ، والأهوال العظام [8] ٠

فمن المحال أن يتم فيه نعيم ، أو أمان ، أو لذة ، فإن المياه مختلفة الطعم ، والأهوية مختلفة التصريف ، وأهل كل منهلة مخالفون طبع أهل المنهلة الأخرى ٠

فيحتاج المسافر لما يصلح ، بتلقى كل عالم ومنزلة ، فإنه عندهم صاحب ليلة أو ساعة وينصرف ، فأنّى تعقل الراحة ، فيمن هذه حاله ؟

وما أردنا بهذا ، رداً على أهل النعيم في الدنيا ، العاملين لها ، والمكبين على جمع حطامها ، فإن أهل هذا الفعل عندنا أقل وأحقر من أن يشتغل بهم ، أو يلتفت إليهم٠

وإنما أردنا تنبيهاً لمن استعجل لذة المشاهدة فى غير موطنها الثابت ، وحالة الهنا فى غير منزلها ، والاستهلاك بالحق ، بطريق الحق عن العاملين ٠ فإن السادات منا أَنِفُوا من ذلك ؛ لما فيه من تضييع الوقت ، ونقص الرتبة، ومعاملة الوطن بما لا يليق ، فإن الدنيا وتعلق الهمة بها، والركون

إليها، واستحلاء ذلك سوء أدب فى حقه[٩] ويفوته أمر كبير؛ فإن زمان الهنا زمان ترك مقام أعلى مما هو فيه ٠

لأن التجلى على قدر العلم ، وصورته : مما جعل لك، من العلم به ، مجاهدتك ، وتهيئتك فى الزمان الأول مثال ، ثم إن ما شهدت فى الزمان الثانى ، فإنما تشهد منه صورة عملك المقرر فى الزمان الأول ٠ فما زدت سوى ما يزيدك من علم ، فالقوة واحدة ، فقد حصلت ما ينبغى لك أن تدخره لموطنه ، وهو الدار الآخرة التى لا عمل فيها ، فإن زمان مشاهدتك ، لو كنت فيه صاحب عمل ظاهر ، وتلقين علم باطن ، كان أعلى بك ؛ لأنك تزيد حسناً وجمالاً فى روحانيتك الطالبة ربها ، وفى نفسانيتك الطالبة خلتها ، فإن اللطيفة الإنسانية ، تحشر على صورة عملها ، والأجسام تنشر على صورة عملها من الحسن والقبح ، وهذا إلى آخر نفس ٠ فإذا انفصلت من عالم التكليف ، وموطن المعارج والارتقاءات ، حينئذ تجتنى ثمرة كدك٠

فإذا فهمت هذا فاعلم ـ وفقنا الله وإياك ـ أنك إذا أردت الدخول إلى حضرة الحق ، والأخذ منه ، بترك الوسائط ، والأنس به ، فلا يصلح لك ذلك ، وفى قلبك زبانية لغيره ٠

العزلة وإيثار الخلوة :

فإنك لمن حكم عليك سلطانه ـ هذا لاشك فيه ـ فلابد لك من العزلة عن الناس، وإيثار الخلوة على الملأ ، فإنه على قَدْرِ بُعْدكَ عن الخلق ، يكون قــربك من الحق ، ظاهراً أو باطناً ٠٠

فأول ما يجب عليك ، طلب العلم ، الذى تقيم به ، طهارتك ، وصلاتك ، وصيامك ، وتقواك(١٠) وما يعرض عليك طلبه خاصة٠لا تزيد على ذلك، وهو باب الشكر، ثم العمل به، ثم الورع ، ثم الزهد ، ثم التوكل ٠٠

وفى أول حال من أحوال التوكل(١١) تحصل لك أربع كرامات ، هى علامات وأدلة ، على حصولك ، فى أول درجــة التــوكل ، وهى طيُّ الأرض ، والمشى على الماء ،

واختراق الهواء ، والأكل من الكون ٠ وهو الحقيقة فى هذا الباب ، ثم بعد ذلك تتوالى المقامات ، والأحوال ، والكرامات ، والتنزلات إلى الموت [١٢] فالّله ، الله ، لا تدخل خلوتك حتى تعرف أين مقامك ، وقوتك من سلطان الوهم ٠

فإن كان وهمك حاكماً عليك فلا سبيل إلى الخلوة إلا على يد شيخ مميز عارف ، وإن كان وهمك تحت سلطانك فخذ الخلوة ولا تبالى(*)٠ وعليك بالرياضة قبل الخلوة ٠ والرياضة عبارة عن تهذيب الأخلاق ، وترك الرعونة وتحمل الأذى [١٣] فإن الإنسان إذا لم يتقدم فتحه رياضته ، لا يجىء منه رجل أبداً ، إلا فى حكم النادر ٠

فإذا اعتزلت عن الخلق ، فاحذر من قصدهم إليك ، وإقبالهم عليك ، فإنه من اعتزل عن الناس ، لم يفتح باب قصد الناس إليه ، فإن المراد من العزلة ، ترك الناس

(*) الصواب : (تبال) بحذف الياء ، لدخول (لا) الناهية على الفعل .

ومعاشرتهم ، وليس المراد من ترك الناس ، ترك صورهم ، وإنما المراد ألاَّ يكون قلبك ، ولا أُذنك ، وعاءً لما يأتون به ، من فضول الكلام ، فلا يصفو القلب من هذيان العالم ٠

فكل من اعتزل فى بيته ، وفتح باب قصد الناس إليه ، فإنه طالب رياسة وجاه ، مطرود عن باب الله تعالى ، والهلاك إلى مثل هذا أقرب من شراك نعله ، فالله ، الله ، تحفظ من تلبيس النفس فى هذا المقام ، فإن أكثر الناس هلكوا فيه ٠

من آداب الخلوة :

فأغلق بابك دون الناس ، كذلك باب بيتك بينك وبين أهلك ، واشتغل بذكر الله تعالى ، بأى ذكر شئت من الأذكار ، وأعلاها الاسم : الله ٠ الله [١٤] ٠ لا تزيد عليه شيئاً ، وتحفظ من طوارق الخيالات الفاسدة أن تشغلك عن الذكر ، وتَحَفَّظْ فى غذائك ، واجتهد أن يكون دسماً ، ولكن من غير حيوان فإنه أحسن ٠

واحـذر من الشـبع ، ومن الجـوع المفـرط ، والزم طريق الاعتدال فى المزاج ، فإن المزاج إذا أفرط فيه اليبس ، أدى إلى خيالات وهذيان طويل ٠٠ وإذا كان الوارد ، هو الذى يعطى الانحراف ، فذلك هو المطلوب ، وتفرق بين الواردات الروحانية الملكية ، والورادات الروحانية النارية الشيطانية ، بما تجده فى نفسك عند الوارد٠

وذلك أن الوارد إذا كان ملكياً ، فإنه يعقب برداً ولذة ، ولا تجد ألماً ، ولا تتغير لك صورة ، ويترك علماً ٠٠

وإذا كان شيطانياً ، فإنه يعقب تهريساً فى الأعضاء ، وألماً، وكرباً ، وحيرة ، ويترك تخبيطاً ٠ فَتَحَفَّظْ ٠

ولا تزال ذاكـراً ، حـتى يفـزع الله عن قلبك ، وهو المقصود٠ واحذر أن تقول : ماذا ؟

وليكن عقدك عند دخولك إلى خلوتك : أن الله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾[١٥] فكل ما يتجلى لك من الصور فى خلوتك ويقول : أنا الله ٠ فقل : سبحان الله ، أنت بالله ،

وأحبط صورة ما رأيت ، والّهُ عنها ، واشتغل بالذكر دائماً ·
هذا عقد واحد ·

والعقد الثانى : ألاَّ تطلب منه فى خلوتك سواه ، ولا تعلق الهمة إلا به ، سبحانه تعالى جده ، ولو عرض عليك كل ما فى الكون فخذه بأدب ، ولا تقف عنده ، وصحح على طلبك ، فإنه يبتليك · ومهما وقفت مَع شيء فاتك ، وإذا حصلت لم يفتك شيء ، فإذا عرفت هذا فاعلم أن الله يبتليك بما يعرضه عليك ·

فأول ما يفتحه عليك : أن يعطيك الأمر على ترتيب ما أقوله لك ، وهو كشف عالم الحس الغائب عنك (١٦) فلا تحجبه الجدران ، ولا الظلمة ، عما يفعله الخلق فى بيوتهم· إلا أنه يجب عليك التحفظ ألاَّ تكشف سر أحد لأحد إذا أطلعك الله عليه ·

فإن بُحت وقلت : هذا سارق ، وهذا زان ، وهذا يغتاب ، فاتهم نفسك ، فإن الشيطان قد دخل عليك ، فتحقق بالاسم «الستار» ·

فإن جاءك ذلك الشخص ، فانهه فيما بينك وبينه، على الستر ، وأوْصِه أن يستحى من الله ، ولا يتعدى حدود الله ٠

وعن هذا الكشف الحسى جاهد طاقتك واشتغل بالذكر. وأما التفرقة بين الكشف الحسى والخيالى فأبينه لك .وذلك إذا رأيت صورة شخص ، أو فعلاً من أفعال الخلق ، أن تغلق عينيك ، فإن بقى لك الكشف فهو خيالك ٠ وإن غاب عنك فإن للإدراك تعلُّق (*) به فى الموضع الذى رأيته فيه ٠

ثم إذا لهيت عنه ، واشتغلت بالذكر ، انتقلت من الكشف الحسى ، إلى الكشف الخيالى ، فتنزل عليك المعانى العقلية ، فى الصور الحسية ، وهو تنزل صعب ٠ فإن علم ما يُراد بتلك الصور ، لا يعرفه إلا نبى ، أو من شاء الله من الصِّدِّيقين ، فلا تشتغل به ، وإنْ سِيقَت لك مشروبات، فاشرب الماء منها ، فإنْ لم يكن فيها ماء فاشرب اللبن ، وإن جمعت بينهما فحسن ٠كذلك العسل فاشربه ... (**).

(*) الصواب (تعلقاً) بالنصب ؛ لأنه اسم (إن) مؤخر .

(* *) هنا عبارة محذوفة .

واشتغل بالذكر حتى يُرفع عنك عالم الخيال ، ويتجلى لك عالم المعانى المجردة عن المادة ، فاشتغل بالذكر حتى يتجلى لك مذكورك ، فإذا أفناك عن الذكر فتلك المشاهدة أو النومة ٠

وسبيل التفرقة بينهما : أن المشاهدة تترك فى المحل شاهدها ، فتقع اللذة عقبها ، والنومة لا تترك شيئاً ، فيقع التيقظ عقبها ، والاستغفار والندم ٠ ثم إنه يعرض عليك مراتب الملائكة ابتلاءً ، فإن رتب لك العرض ، فإنك ستكشف أولا ، على أسرار الأحجار المعدنية وغيرها ، وتعرف سر كل حجر ، وخاصيته فى المضار والمنافع ، فإن تعشقت ذلك أبقيت معه وطردت ، ثم يسلب عنك حفظه فخسرت٠

وإن استفدت منه ، واشتغلت بالذكر ، ولجأت إلى جناب المذكور ، رفع عنك ذلك النمط ، وكشف لك عن النباتات، ونادتك كل عشبة بما تحمله من المضار والمنافع ، فليكن حكمك معها كحكمك أولا ٠

وليكن غذاؤك عند الكشف الأول ما كثرت حرارته ورطوبته ، وفى هذا الكشف الآخر ما اعتدلت حرارته ورطوبته • فإذا لم تقف معه ، رفع لك عن الحيوانات ، فسلمت عليك ، وعرفتك بما تحمله من المضار والمنافع•

وكل عالم يعرفك بتسبيحه وتحميده، وهنا نكتة،وذلك أن تنظر ما تشتغل به من الأذكار ، فإن رأيت هؤلاء العوالم مشتغلين بذلك الذكر ، الذى أنت عليه ، فكشفك خيالى ، لا حقيقى ، وإنما ذلك حالك أقيم لك فى الموجودات ، وإذا شهدت فى هؤلاء تنويعات أذكار ، فهو الكشف الصحيح •

وهذا المعراج هو معراج التخليل على الترتيب ، والقبض لك مصاحب فى هؤلاء العوالم على الترتيب •

ثم بعد ذلك يكشف لك عن عالم سريان الحياة السارية فى الأحياء ، وما يعطى من الأثر فى كل ذات ، بحسب استعداد الذوات ، وكيف تندرج العبادات فى هذا السريان •

فـإن لـم تقف مع هذا رُفع عنك ، ورفـعت لك اللوائح اللوحيـة ، وخوطبت بالخوف ، وتنوعت عليك الخيـالات، وأُقيم لك ذوات ، تعاين فيـهـا صـور الاستحالات ، وكيف يصير اللطيف كثيفاً ، والكثيف لطيفاً ، وما أشبه ذلك ٠

آداب الدخول والوقوف بين يدى الحق :

فـإن لـم تقف مع هذا ورُفع لك نور مـتطاير الشـرر ، فستطلب الستر عنه ، فلا تَخَفْ ، وَدُمْ على الذكر ؛ فإنك إذا دمت على الذكر ، لن تصيبك آفة ٠

فـإن لـم تقف مع ذلك ، رُفع لك نور الطوالع ، وصـورة التـركـيب الكلى ، وعـاينت آداب الدخـول إلى الحـضـرة الإلـٰهيه، وآداب الوقوف بين يدى الحق ، وآداب الخروج من عنده إلى الخلق ، والمشاهدة الدائمة بالوجوه المختلفة ، من الظاهر والباطن ، والكبال الذى لا يشعر به كل أحد، فـما نقص من الوجه الظاهر ، أخذه من الوجه الباطن ٠ والذات واحدة ، فـمـا ثَمَّ نقص ، وكـيف تلقى العلوم الإلـٰهـيـة من

الله تعالى ، وما ينبغى أن يكون عليه المتلقى من الاستعدادات ، وآداب الأخذ والعطاء ، والقبض والبسط. وكيف يحفظ القلب من الهلاك المحرق، فإن الطرق كلها مستديرة ، ماثَمَّ طريق خَطِّىٌّ . وغير ذلك مما تضيق الرسالة عنه .

فإن لم تقف مع هذا كله رُفع لك عن مراتب العلوم النظرية ، والأفكار السليمة ، وصور المغاليط التى تطرأ على الأفهام . والفرق بين الفهم والوهم ، وتولد التكوينات بين عالم الأرواح والأجسام ، وسبب ذلك التولد ، وسريان السر الإلٰهى فى عالم العناية ، وسبب من ترك الكون ، عن مجاهدة وعن لا مجاهدة ، وغير ذلك مما يطول .

فإن لم تقف مع هذا رُفع عن عالم التصوير والتحسين والجمال ، وما ينبغى أن تكون عليه العقول من الصور المقدسة ، والنفوس الثانية من حسن الشكل ، والنظام ، وسريان القوة ، واللين ، والرحمة فى الموصوفين بها. ومن هذه الحضرة يكون إمداد الشعراء ، ومن الذى قبله يكون

فإن لم تقف مع هذا رُفع لك عن مراتب القطبية ، وكل ما شاهدته قبل فهو من عالم اللسان ، وهذا الموضع هو القطب • فإذا تجلى لك هذا العالم ، علمت الانعكاسات ، ودوام الدائمات ، وخلود الخوالد ، وترتيب الموجودات ، وسريان الوجود فيها ، وأُعطيت الحكم الإلٰهية والقدرة على حفظها ، والأمانة على تبليغها إلى أهلها ، وأُعطيت الرموز والإجمال ، والقوة على الوهب ، والستر ، والكشف •

فإن لم تقف مع هذا رُفع لك عن عالم الحمية ، والغضب ، والتعصب ، ومنشأ الخلاف الظاهر فى العالم ، واختلاف الصور وغير ذلك • فإن لم تقف مع هذا رُفع لك عن عالم الغيرة ، وكشف الحق على أتم وجوهه ، والآراء السليمة ، والمذاهب المستقيمة ، والشرائع المنزلة ، وترى عالماً قد زينهم الله من المعارف القدسية بأحسن زينة ، وما من مقام يكشف لك عنه إلا وهو يقابلك بالتعزير والتوقير

والتعظيم ، ويعرب لك عن مقامه ومرتبته من الحضرة الإلـٰهية ، ويعشقك بذاته ٠٠

فإن لم تقف معه رفع لك عن عالم الوقار ، والسكينة، والثبات ، وغامضات الأسرار ، وما أشكل هذا الفن ٠

فإن لم تقف معه رفع لك عن الحيرة ، والقصور ، والعجز، وغرائز الأعمال ، وهو عليٌّ ٠

فإن لم تقف معه رفع لك عن الجنان ، ومراتب درجاته ، وتداخل بعضه فى بعض ، وتفاضل نعيمه ، وأنت واقف على طريق صدقه ، ثم أشرف بك على شفير جهنم ومراتب دركاتها ، وتداخل بعضها فى بعض ، وتفاضل عذابها ٠ ورفع لك عن الأعمال الموصلة إلى كل واحدة من الدارين٠

فإن لم تقف معه رُفع لك عن أرواح مستهلكة فى مشهد من مشاهدهم فيها حيارى سكارى ، قد غلبهم سلطان الوجد ، فدعاك حالهم ٠

فإن لم تقف لدعوتهم رُفع لك نور لا ترى فيه غيرك ، فيأخذك فيه وجد عظيم ، وهيمان شديد ، وتجد فيه من اللذة بالله ، مالم تكن تعرفها قبل ذلك ، ويصغر فى عينيك كل ما رأيته ، وأنت تتمايل تَمَايُلَ السراج ٠

فإن لم تقف معه رُفع لك عن صور بنى آدم ، وستُور تُرْفَعُ ، وسُدول تُسدل ، ولهم تسبيح مخصوص ، تعرفه إذا سمعته ، فلا تدهش فسترى صورتك بينهم ، ومنها تعرف وقتك الذى أنت فيه٠

فإن لم تقف معه رُفع لك عن سرائر الروحانية ، وكل شيء عانيته ، فإذا نظرت إلى كل شيء فسترى جميع ما اطلعت عليه ، وزائد على ذلك ، ولا يبقى علم ولا عين إلا وتشاهده فيه ، فاطلب عينَك فى كل عالم ، فإذا وقفت عليكَ عليكَ فيه عرفت أين غايتك ومنزلتك ومنتهى رتبتك، وأى اسم صورتك ، وأين حظك من المعرفة والولاية، وصورة خصوصيتك ، فإن لم تقف معه رُفع لك عن أستاذ

كل فعل ومعلمه ، فعاينت أثره ، وعرفت خبره ، وشاهدت انتكاسه ، وتلقيه ، وتفصيل مجمله ، من ملك النور الفوقى .

فإن لم تقف معه رُفع لك عن المحرك ، فإن لم تقف معه مُحيتَ ، ثم غُيِّبْتَ ثم أفنيت ، ثم شخصت ، ثم محيت . حتى إذا نهت فيك آثار المعاصى وأحزانه أثبتت ، ثم أحضرت ، ثم أبقيت ، ثم جمعت ، ثم غيبت ، فخلعت عليك الخلع التى تقتضيها ، فإنها تتنوع ، ثم ترد على مدرجتك ، فتعاين كل ما عاينته أولا مختلف الهوى ، ثم تُرَدُّ إلى عالم حسك المقيد الأرضى ، أو تُمْسَك حيث غُيلت .. وغاية كل سالك مناسبة لطريقه الذى عليه سلك :

فمنهم من يناجى بلغته .

ومنهم من يناجى بلغة غير لغته . فكل من نُوجى بلغة – أى لغة كانت – فإنه وارث لبنى ذلك اللسان . وهو الذى

تسمعه ، على ألسنة هذه الطريقة ، أن فلاناً موسَوِىٌّ ، وفلانا عيسوى ، وإبراهيمى ، وإدريسى ٠

ومنهم من يناجى بلغتين ، وثلاث ، وأربع ، فصاعداً٠

والكامل من يناجى بجميع اللغات ، وهو المحمدى خاصة٠ فما دام فى غايته فهو الواقف ، مالم يرجع ، فإن منهم المستهلك فى ذلك المقام كأبى عقال وغيره ، وفيه يُقبض ويُحشر ٠

ومنهم المردود ، وهو أكمل من الواقف المستهلك ، بشرط أن يتماثلا فى المقام ، وإن كان المستهلك فى مقام أعلى من مقام المردود فلا تَقُل إن المردود أعلى، ولكن شرطنا التماثل، أو يعين المردود النازل عن مقام المستهلك ، ويزيد عليه فى التدانى ، ويفصل عليه فى الترقى فيفضل عليه فى الترقى ٠

وأما المردودون : فهم رجلان :

منهم من يرد فى حق الطريق الذى سلك عليه ٠

ومنهم من يرد إلى الخلق بلسان الإرشاد والهداية ، وهو العالم الوارث · وليس كل داع وارث على مقام واحد ، ولكن يجمعهم مقام الدعوة ، ويفضل بعضهم على بعض فى مرتبته ، كما قال تعالى : (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) (١٧) ·فمنهم الداعى بلغة موسى ، وعيسى ، وإسحاق ، وإسماعليل ، وآدم ، وإدريس ، وإبراهيم ، ويوسف، وهارون ، وغيرهم · وهؤلاء هم الصوفية ، وهم أصحاب أحوال ، بالإضافة إلى السادة منا ·

ومنهم الداعى بلغة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهم الملامتية ، أهل التمكين والتحقيق ، وإذا دعوا الخلق إلى الله تعالى فمنهم من يدعوه من باب الفناء فى حقيقة العبودية ، وهو قوله تعالى : (وقد خلقتُكَ من قبل ولم تك شيئاً) (١٨) أو من باب ملاحظة العبودية ، وهو الذلة والافتقار، وما يقتضيه مقام العبودية ·

ومنهم من يدعوهم من باب ملاحظة الأخلاق الرحمانية·

ومنهم من يدعوهم من باب ملاحظة الأخلاق القهرية.

ومنهم من يدعوهم من باب الأخلاق الإلٰهية . وهو أرفع باب وأجله .

واعلم أن الحرص ، والبخل ، والجبن والحسد ، والكبر، مازال من الإنسان أصلاً ، وجرى عليه لسان الحمد والذم لها على حساب تصريفها . فمن قال للإنسان لا تجبن ولا تبخل ، فقد قال له : زل عن نشأتك وانعدم وانتشئ نشأة أخرى :﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾(١٩) فلا ينفك عما جُبِلَ عليه ، لكن قد عين الحق تعالى المواطن التى نقوم فيها بهذه الصفات ، ولنشأة الدُّنَى اختصاص بخلاف النشأة الأخرى ، حتى لا يقع اشتراك بين النشأتين من جميع الوجوه .

وللنشأة الأخرى اختصاص ، فكيف لا يكون ذلك ، ونشأة الدنى نشأة امتزاج وأمشاج ، ونشأة الأخرى نشأة خلاص من هذا المزاج ، فيتخلص الشقى لشقاوته ، فلا

يكون فيه شيء من الخير ، ويتخلص السعيد لسعادته فلا يكون فيه شيء من الشر ؛ لأن ذات الآخرة تعطى ذلك ، فلا جبن، ولا بخل ، ولا حسد فى نشأة السعداء أصلاً.

ولو كانت هى هذه النشأة لم تفارقها لوازمها ، ولا وجود، ولا أمن ، فى نشأة الأشقاء أصلاً ، ولو كانت عن هذه النشأة لم تفارقها لوازمها بالتعاقب وغير التعاقب، واعتل بتعاقب ظهور هذه الصفات ، فالحكم على ظاهر الغالب لا فى عينها ، فإنها لازمة للنفس من حكم هذا التركيب المخصوص .

والتركيب فى الأخرى خاصة ، يشبه هذا التركيب فى الصورة ، لا فى جميع الوجوه ، فتكون للنفس لوازم أخرى غير هذه اللوازم فى هذا العين ، فهذا ينبغى لك أن تدرك النشأة الأخرى ، فعبر الشَّارع عن هذه المكافآت بالصورة ، فنحن نقول بالصورة والمثل ، لا بالنظير والكفء أدباً شرعياً ، إذ الأدباء جلساء الحق ، ومن لا أدب له ، لا شهود له ، ومن لا شهود له ، فهو يسبح فى بحر الأفكار العقلية

بالوسائط الخيالية ، وهى الحائر الذى لا يهتدى أبداً ، فهو يطلب مالا يعطى حقيقته أن يطلب.

فإذا قال وجدت ، وقد حصلت ما كنت طلبت ، فقد سقط وخسر مافى يديه من حيث لا يشعر ، فنعوذ بالله من غمرة الجاهلين .

فالسعيد من أهمل الفكر والطلب ، الذى لا يثبت له قدم، ولا يستقر به منزل ، ويتنفس الصعداء ، ويقول : تقضى العمر وما أنتج لى طلبى إلا الحيرة والقصور ، فذلك أسعد أهل الفكر ؛ ولذلك ورد الخبر : «علماء هذه الأمة كأنبياء بنى إسرائيل» .. وقال تعالى فينا :﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[20] .

وقال فى حق الرسل عليهم السلام :﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[21] فنحن والأنبياء شهداء على أتباعهم .

فاصرف الهمة فى الخلوة للوراثة الكلية المحمدية ، واعلم أن الحكيم الكامل المحقق المتمكن هو الذى يعامل كل حال وقته بما يليق ولا يخلط .

وهذه حالة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه كان قربه كقاب قوسين أو أدنى • ولما أصبح وذكر للحاضرين، لم يصدقه المشركون ؛ لكون الأثر ما ظهر عليه ، بخلاف غيره ممن ظهر عليه الأثر ، فكان يتبرقع ، ولكن لابد لكل سالك من تأثير الأحوال فيه ، وخلطة العوالم بعضها ببعض .

ولكن ينبغي له الترقي في هذا المقام ، أي مقام الحكمة الإلـٰهية الجارية على القانون المعتاد في الظاهر ، ويصرف خرق العوائد إلى سره ، حتى ترجع له خرق العوائد عادة لاستصحابه . ولا يزال يقول في كل نفَس :﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾.[٢٢] ما دام الملك يجرى بنفسه، وليجتهد أن يكون وقته نفسه ، وإذا ورد عليه وارد الوقت يغلبه ، وليحذر من التعشق به ، ويحفظه ، فإنه يحتاج إليه إذا ربَا . فأكثر الشيوخ إنما أتى عليهم في التربية لما فرطوا في حفظ ماذكرناه ، وزهدوا فيه زهدا كلياً . ويطول الوقت ويقصر بحسب حضورها فيه .

فمنهم من وقته ساعة ، ويوم ، وجمعة ، وشهر ، وسنة واحدة ، ومرة واحدة في عمره .

ومن الناس من لا وقت له ، وغلو الشخص يدل على طول وقته ، والذى لا وقت له إنما حرم الحكم لتهينه عليه . فإن باب الملكوت والمقار فيه من المحال أن يفتح فى القلب شهوده للملك والملكوت .

وأما باب العلم بالله من حيث المشاهدة فلا يُفتح وفى القلب لمحة العالم بأسره ، أعنى الملك والملكوت ، الله أكبر من أن يكون لغيره عنده قيمة أو خطر .واعلم أن هذه الأمور الوضيعة إذا سلك عليها الإنسان ، أعنى قام بها ولم تكن له همة بأمور وراءها إلا الجنة ، فذلك هو العابد، صاحب المحاء والمحراب ، كما أن الهمة ، لو تعلقت بما وراء العبادات ، من غير الاعتداد بها ، لم ينكشف له شيء ، ولا تقف بهمته ، بل صاحبها أشبه بمريض ، سقطت قواه بالكلية ، وعنده الإرادة والهمة للحركة ، والآلة متعطلة ، فهل يصل بهمة إلى مطلوبه ، فلابد من الاستعداد على الكمال ، بالهمة وغيرها .

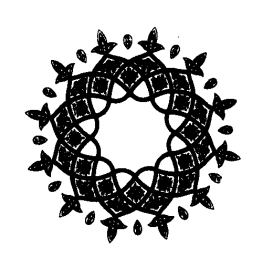
فإذا وصل إلى عين الحقيقة ، امتحقت همته ، وليس بحصول البغية ، فيقول الجاهل لا ينبغى ، وإنما ذلك

الدهش الذى يقع به عند رفع الحجاب . فإن العلم الذى يحصل له عند المشاهدة تلقى عنده التوجه إلى ما هو فوق، ما ظهر فى حقه ، لا فيما ظهر . فإن الظاهر وإن كان واحداً لعيّنٍ ، فإن الوجوه منه غير متناهية ، وهى آثاره فينا .

فلا يزال العالم متعطشاً أبداً . والذاهب يتعلق به دائماً أبداً .. فلمثل هذا فليعمل العاملون ، وفى مثل هذا فليتنافس المتنافسون .

والحمد لله رب العالمين .

(تم الكتاب بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه)



هوامش وتعليقات

(١) هذه المقدمة يبدو أنها من الناسخ ·

(٢) يبدو أن هذه الرسالة كانت إجابة عن سؤال وُجِّه إلى الحكيم الترمذى · وكان الكثير من الناس يبعثون إليه برسائل يستفسرون فيها عن أشياء يجيبهم الحكيم عنها ·· ويجوز ألاّ يكون هناك سؤال أصلاً ، ولكن عادة العلماء آن ذاك كانت تقتضى اتخاذ هذا الأسلوب للتشويق ·

(٣) يتضح من العبارة أن السائل كان ولياً · وإذن كان الحكيم الترمذى فى درجة عالية من الولاية ·

«والأولياء هم الذين عليهم سمات ظاهرة من الله تعالى : قد علاهم بهاء القربة ، ونور الجلال ، وهيبة الكبرياء ، وأنس الوقار ، فإذا نظر الناظر إليهم ذكر الله تعالى ، لما رأى عليهم من آثار الملكوت ، والقلب معدن هذه الأشياء ، ومستقر النور ، فإذا كان على القلب نور سلطان الوعد والوعيد ، تأدى إلى الوجه ذلك النور، فإذا وقع بصرك عليه ذكرك التقوى ، ووقع عليك منه مهابة الصلاح والعلم بأمور الله تعالى · ومتى كان على القلب نور سلطان الله تعالى وعظمته وجلاله ذكرك عظمته وجلاله وسلطانه ، وإذا كان على القلب نوره ـ وهو نور الأنوار ـ بهتك رؤيته » **«نوادر الأصول »** ·

«وقد يكون فى الأولياء من هو أرفع درجة ، وذلك عبد قد ولى الله استعماله ، فهو فى قبضته يتقلب ، به ينطق ، وبه يسمع ، وبه يبصر، وبه يبطش ، وبه يعقل ، شَهَرَهُ فى أرضه ، وجعله إمام خلقه، وصاحب لواء الأولياء ، وأمان أهل الأرض ، ومنظر السماء، وريحانة الجنة ، وخاصة الله ، وموضع نظره ، ومعدن سره ، وسوطه فى أرضه ، يؤدب به خلقه ، ويحيى القلوب الميتة برؤيته ، ويرد الخلق إلى طريقه ، وينعش به حقوقه ٠٠ مفتاح الهدى ، وسراج الأرض ، وأمين صحيفة الأولياء ، وقائدهم ، والقائم بالثناء على ربه، بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يباهى به الرسول فى ذلك الموقف ، وينوه الله باسمه فى ذلك المقام ، ويقر عين الرسول صلى الله عليه وسلم»

«نوادر الأصول»

(٤) يقول العلماء : «إن الشريعة أمر بالتزام العبودية ، والحقيقة مشاهدة الربوبية ، فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة غير مقبولة ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة غير محمودة ، فالشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والحقيقة إنباء عن تصريف الحق ، فالشريعة أن نعبده ، والحقيقة أن نشهده ، والشريعة قيام بما أمر ، والحقيقة شهود لما قضى وقَدَّر ، وأخفى وأظهر» ٠ **«الرسالة القشيرية»** ٠

ولما كان الحديث عن السالك كان علينا أن نُعَرِّف السالك ٠ يقول العلماء : «اعلم أن السالك هو الساير إلى الله ، المتوسط بين المريد

والمنتهى مادام في السير • والسير على ثلاثة أقسام : لله ، وفى الله، وبالله •

أما الذى لله فهو ينتهى إلى الله ، وأما الذى فى الله فلا نهاية له ، وأما الذى بالله فهو مقام التكميل فى حالة صارت سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله لله بالله • أعنى لا يتصرف بشىء إلا به•

والسلوك والسير فى الحقيقة شىء واحد ، يقع التغاير بينهما بحسب الاعتبارات فقط ، والحاصل أن السير مخصوص بالباطن ، والسلوك بالظاهر ، والسير وهو فى الحقيقة سفر من الحق إلى الخلق بالقلب والسير باطناً •

والأسفار أربعة :

الأول : هو السير إلى الله فى منازل النفس إلى الأفق المبين ، وهو نهاية مقام القلب ومبدأ الأسمائية •

والثانى : السفر بالله بالاتصاف بصفاته ، والتحقق بأسمائه إلى الأفق الأعلى ، ونهاية الحضرة الواحدية •

والثالث : هو الترقى إلى عين الجمع وحضرة الأحدية ، وهو مقام «قاب قوسين»

والرابع : هو السير بالله عن الله للتكميل » •• «**حيدر بن على العلوى الأملوى**»

(٥) ربما كانت العقيدة الإسلامية من بين العقائد الموروثة هى العقيدة

التى يظهر فيها بوضوح التفرقة بين جزأين متكاملين ، هما : الظاهر والباطن ، أعنى الشريعة ، وهى الباب الذى يدخل منه الجميع ، والحقيقة ، ولا يصل إليها إلا المصطفون الأخيار ·

وهذه التفرقة ليست تحكمية ، وإنما تفرضها طبيعة الأشياء · ذلك أن استعداد الناس متفاوت ، وبعضهم معد لمعرفة الحقيقة · وكثيراً ما نجدهم يشبهون الشريعة والحقيقة بالقشر واللب ، أو بالدائرة ومركزها ·

والشريعة تتضمن ـ فضلاً عن الناحية الاعتقادية ـ الناحية التشريعية والناحية الاجتماعية ، وهما جزءان لا يتجزأان عن الدين الإسلامى· إنها ـ أولا وقبل كل شىء ـ قاعدة للسلوك ، أما الحقيقة فإنها معرفة محضة ، ولكن يجب أن تعلم أن هذه المعرفة هى التى تعطى الشريعة معناها السامى العميق ، بل هى التى تبرر وجود الشريعة ، إنها فى الحقيقة ـ وإن لم يشعر بذلك المؤمنون ـ المركز الأساسى ، مثلها فى ذلك مثل مركز الدائرة بالنسبة لمحيطها· بيد أن الباطن لا يعنى فقط الحقيقة ، وإنما يعنى كذلك السبل الموصلة إليها ، أعنى الطرق التى تقود الإنسان من الشريعة إلى الحقيقة ، وإذا رجعنا إلى الصورة الرمزية، أى الدائرة ومركزها ، قلنا إن الطريقة هى الخط الذاهب من محيط الدائرة إلى المركز ، وكل نقطة على محيط الدائرة هى مبدأ الخط ، هذه الخطوط التى لا

تحصى تنتهى كلها إلى المركز • إنها الطرق ، وهى طرق تختلف تبعاً لاختلاف الطبائع البشرية ؛ ولهذا يُقال : «الطرق إلى الله كنفوس بنى آدم» •

ومهما اختلفت فالهدف واحد ؛ لأنه لا يوجد إلا مركز واحد ، وإلا حقيقة واحدة • «**الدكتور عبدالحليم محمود ـ مقدمة المنقذ من الضلال**» •

(٦) إشارة إلى قوله تعالى فى سورة الأعراف :﴿وإذْ أَخَذَ ربُّكَ من بنى آدم من ظهورهم ذُرِّيَّتَهم وأَشْهَدَهُم على أنْفُسِهم ألستُ بربكم قالوا بلى، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنَّا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنمَّا أشْرَكَ آباؤنا مِنْ قَبْلُ وكُنَّا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فَعَلَ المُبْطلُون﴾

[الأعراف ـ الآيتان ١٧٢ و ١٧٣] •

(٧) ـ ارجع إلى قوله تعالى :﴿والنازعات غرقاً . والناشطات نشطاً . والسَّابحات سبحاً . فالسابقات سبقاً . فالمدبرات أمراً . يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرَّادفة . قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة . يقولون أإنا لمردودون فى الحافرة . أإذا كنا عظاماً نخرة . قالوا تلك إذاكرة خاسرة . فإنما هى زَجْرة واحدة . فإذا هم بالسَّاهرة﴾ [النازعات الآيات ١ـ١٤] والساهرة : هى أرض المحشر. فإنه لا نوم لأحد بعد الدنيا ، وهى نفس الأرض التى نحن عليها ، غير أن

نعوتها تتبدل، فتكون الخاصية فى الحشر الساهرة ، أى لا ينام عليها أحد لهذه الخاصية .فالساهرة هى هذه الأرض التى نحن عليها بعد أن يبدلها الله تعالى كيف يشاء ، إما بالصورة وإما بأرض أخرى مانيم عليها تسمى الساهرة · **[الشيخ الأكبر محيى الدين بن العربى «رحمة من الرحمن فى تفسير واشارات القرآن» · جمع الشيخ محمود محمود الغراب]**

(٨) يمكن الإنسان أن يعود إلى قوله تعالى :﴿تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير · الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور﴾[الملك ـ الآيتان : الأولى والثانية] ويقول الشيخ الأكبر محيى الدين بن العربى : (الذى خلق الموت والحياة) الحياة لعين الجوهر ، والموت لتبدل الصور ، كل ذلك (ليبلوكم) أى : ليختبركم ، فجعل ليبلوكم إلى جانب الحياة ، فإن الميت لا يختبر · (أيكم أحسن عملاً) أى : ليختبركم بالتكليف ، وهو الابتلاء لما عليه الإنسان من الدعوى ، وأعظم الفتن والاختبار فى النساء والمال والولد والجاه · **[راجع الشيخ الأكبر فى كتاب رحمة من الرحمن · جمع العلامة الشيخ محمود محمود الغراب]** ·

(٩) يقول حجة الإسلام الغزالى : «فالأنبياء والأولياء انكشف لهم

الأمر، وفاض على صدورهم النور ، لا بالتعليم والدارسة والكتابة للكتب ، بل بالزهد فى الدنيا ، والتبرى من علائقها ، وتفريغ القلب من شواغلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ٠ فمن كان لله ، كان الله له ٠

وزعموا أن الطريق فى ذلك أولا بانقطاع علائق الدنيا بالكلية ، وتفريغ القلب منها ، وبقطع الهمة عن الأهل ، والمال ، والولد ، والوطن ، وعن العالم ، والولاية ، والجاه ٠٠ وعند ذلك ـ إذا صدقت إرادته، وصفت همته ، وحسنت مواظبته ، فلم تجاذبه شهواته ، ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا ـ تلمع لوامع الحق فى قلبه ٠ [**إحياء علوم الدين**]

(١٠) روى أبوداود ، والترمذى ، وابن ماجه ، وابن حبان فى صحيحه والبيهقى ، وأحمد ، والحاكم وصححه ، عن أبى الدرداء ، رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «مَنْ سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع ٠ وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض ، حتى الحيتان فى الماء ٠ وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء ٠ إن الأنبياء لم يُوَرِّثوا ديناراً ولادرهماً ، إنما وَرَّثوا العلم ، فمن أخذه أخذه بحظ وافر» .

وروى البخارى ، ومسلم ، وابن ماجه ، عن معاوية ، رضى الله

عنه، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين» ·

(١١) التوكل يقول عنه الإمام سهل بن عبد الله : هو الاسترسال مع الله تعالى على مايريد · ويقول القشيرى : التوكل محله القلب ·

(١٢) المقامات هى المنازل الروحية التى يمر بها السالك إلى الله ، فيقف فيها فترة من الزمن مجاهداً فى إطارها ، حتى يهيئ الله سبحانه وتعالى له سلوك الطريق إلى المنزل الثانى ؛ لكى يتدرج فى السمو الروحى من شريف إلى أشرف ، ومن سام إلى أسمى ، وهذه المنازل لابد لها من جهاد وتزكية ، إنها اجتهاد فى الطاعة ، ومواصلة فى التسامى فى تحقيق العبودية لله سبحانه ·

أما الأحوال فإنها النسمات الروحية التى تهب على السالك [**راجع المنقذ من الضلال ــ مقدمة الدكتور عبدالحليم محمود**]

ويقول ابن الدباغ : «اعلم أن المقام عند المحققين · هو الملكة الثابتة لما ينازله السالك من الصفات ، والحال عندهم عبارة عن تأثر القلب بالواردات من المحبوب ، إلا أن ذلك سريع الزوال؛ ولهذا قالوا : ألف حال لا يحصل منها مقام واحد ، والاعتماد فى السلوك على المقامات والملكات لا على الأحوال» · [**مشارق أنوار القلوب**] ·

(١٣) وخلاصة القول فى ذلك أن الرياضة : تصفية القلب عن الرذائل والخبائث المذمومة ، وتزكيته يالفضائل المحمودة التى هى الاستقامة

والاعتدال فى كل خلق من أخلاقه ، وغرائزه ، وجبلاته ·
والقانون العام فى هذه الرياضة والعلاج : مخالفة الهوى ، ومضادة الشهوة ، ومقاومة الباعث فى كل صفة غالبة على نفس المريد حتى تحصل الاستقامة ، والاعتدال ، ويذهب الهوى والميل إلى الشىء [**ابن خلدون ـ شفاء السائل لتهذيب المسائل**]

(١٤) الأسماء الإلـٰهية وإنْ دلت على ذات واحدة ، فإنها تتميز فى أنفسها من طريقين : أحدهما من اختلاف ألفاظها · والثانى من اختلاف معانيها ، وإن تقاربت غاية القرب ، وتشابهت غاية الشبه· وأسماء المقابلة فى غاية البعد ، فلابد من مراعاة حكم ما تدل عليه من المعانى · قال تعالى : (ولله الأسماء الحسنى)·
وليس سوى الحضرات الإلـٰهية التى تطلبها وتعينها أحكام الممكنات، والحضرة الإلـٰهية وهى الاسم (الله) هى الحضرة الجامعة للحضرات كلها ؛ لأنه لما كان فى قوة الاسم بالله بالوضع الأول كل اسم إلـٰهى ، بل كل اسم أثر فى الكون ، يكون عن مسماه ، ناب مناب كل اسم لله تعالى ·فإذا قال قائل : يا الله · فانظر فى حالة القائل التى بعثته على هذا النداء · وانظر أى اسم إلـٰهى يختص بتلك الحال · فذلك الاسم الخاص هو الذى يناديه هذا الداعى بقوله : ياالله ؛ لأن الاسم الله بالوضع الأول إنما مسماه ذات الحق عينها ، التى بيدها ملكوت كل شىء ؛ فلهذا

ناب الاسم الدال عليها على الخصوص مناب كل اسم إلـٰهى ۰
ويتضمن هذا الاسم أسماء التنزيه [**راجع : رحمة من الرحمن فى تفسير وإشارات القرآن من كلام الشيخ الأكبر محيى الدين بن العربى ـ جمع العلامة محمود محمود الغراب جـ٢ ص ٥٨٤**] ۰

(١٥) [سورة الشورى ـ من الآية رقم ١١]

(١٦) يقول ابن خلدون اعلم أن هذه اللطيفة الربانية التى فينا ، إذا حصل لها بالتصفية والمجاهدة العلم الإلهامى ، ويُسمى كشفاً واطلاعاً ، فهو ذو مراتب تختلف وتتفاوت بتفاوت الصفاء والتخلص من الكدورات ، فمبدؤها المحاضرة ، وهى آخر مراتب الحجاب ، وأول مراتب الكشف ، ثم بعدها المكاشفة ، ثم بعدها المشاهدة ، ولا تكون إلا إذا امحت آثار الأنية ۰

قال الجنيد ـ رضى الله عنه : «صاحب المحاضرة مربوط بأنيته ، وصاحب المكاشفة مربوط بدينه وعلمه ، وصاحب المشاهدة تمحوه معرفته»

قال الأستاذ أبو القاسم : «المحاضرة حضور القلب ، وقد يكون بتواتر البرهان ، وهو بعد وراء الستر ، وإن كان حاضراً باستيلاء سلطان الذكر ، ثم بعده المكاشفة ، وهى حضور بنعت البيان غير مفتقر فى هذه الحالة إلى تأمل الدليل ، وتطلب السبيل ، ولا مستجير من دواعى الريب ، ولا محجوب عن نعت الغيب ، ثم المشاهدة ، وهو حضور الحق من غير بقاء تهمة»

ومثال هذا التفاوت فى الاتضاح أن تبصر زيداً فى الدار عن قرب ، وفى صحن الدار ، فى وقت إشراق الشمس ، فهذا كمال الإدراك. وآخر يدركه فى بيت أو من بعد ، أو فى وقت عشية . فيتمثل من صورته ما يتعين معه أنه هو ، ولكن لا يتمثل فى نفسه الدقائق والخفايا من صورته ، ومثل هذا يتصور فى تفاوت المكاشفة للعلوم الإلٰهية ، وأقصى مراتب هذا الكشف وأعلاها هو رتبة المشاهدة ، وهو المعرفة بالله وصفاته وأفعاله وأسرار ملكوته فى أكمل رتب المعرفة . والرتبة العليا من المعرفة التى هى المشاهدة عزيزة الوجود ، شريفة ، شرود ، وإنما تحصل لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية التى لا فوقها غاية» .

[ابن خلدون ـ «شفاء السائل بتهذيب المسائل»] .

(١٧) سورة البقرة ـ من الآية ٢٥٣ .

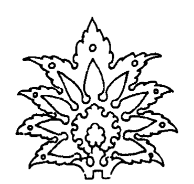
(١٨) سورة مريم ـ من الآية التاسعة .

(١٩) سورة المعارج ـ الآيات من ١٩ ـ ٢١ .

(٢٠) سورة البقرة ـ من الآية ١٤٣ .

(٢١) سورة النحل ـ من الآية ٨٩ .

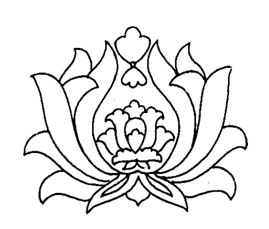
(٢٢) سورة طه ـ من الآية ١١٤ .



فهرس

محتويات الكتاب

رقم الإيداع
٩٢/٨٨٣٣
I . S . B . N
977-270 - 033-6



تجهيزات أوفست

جهاد

٢٢ج شارع سنان - الزيتون - القاهرة .